مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

الوحدة المغاربية في أدبيات التيار الإصلاحي الديني الجزائري(1939–1954)

The Pan-Maghrebism of the Algerian Religious Reformist Movement 1939-1954

[1] د/ حواس مُحَمَّد، (**Mohammed Houas**)

[1] جامعة جيلالي بونعامة – خميس مليانة– *mohammed.houas@univ-dbkm.dz*

مخبر المؤسسات الجزائرية عبر التاريخ ودورها في التنمية

المؤلف المرسل: د/ مُحَمَّد حواس (Houas Mohammed) الإيميل: *mohammed.houas@univ-dbkm.dz*

تاريخ الاستلام: 31 /2024/01 **تاريخ القبول: 02 /2024/06**

الملخص:

اعتبرت الحركة الوطنية الجزائرية مسألة وحدة المغرب العربي من ثوابتها النضالية، و بالعودة إلى مسارها منذ مطلع القرن 20 يتضح لنا أن هذه المسألة كانت حاضرة بقوة في نضالها، بما تترجمه الكثير من برامجها و أدبيتها، و إذا كان هذا التوجه مشتركا لجل اتجاهاتها، فإنه كان هناك اختلاف في طبيعة مضامينه فيما بينها، فالاتجاه الإصلاحي كانت له مقاربة خاصة به في تناول هذا البعد الوحدوي المغاربي، وهي مرتبطة بطبيعة منظومته الفكرية، ومرجعيته التأسيسية، ومعيارية قراءته للأنثروبولوجيا المغاربية، فالنسبة له فقد نتج عن الوحدة الجغرافية للمغرب العربي، و السيرورة التاريخية الواحدة، كيان حضاري موحد، اشتركت شعوبه في الكثير من المقومات، فانصهرت في بوتقة واحدة، و شكلت عبر التاريخ الأمة الواحدة، و الوطن الواحد، و كما كان لهذه الأمة أيام عز في الكثير من المحطات التاريخية، فكذلك عرفت العديد من الانتكاسات، وكان اكبرها الغزو الاستعماري الصليبي، و لئن كان مشروع تحريره قضية مشتركة بين عدد من الاتجاهات السياسية المغاربية، فإنه كان للتيار الإصلاحي مقاربته الخاصة به، و من أهم ملامحها أن تحقيق ذلك يمر عبر الإصلاح، بالعودة بالمنطقة المغاربية إلى أسباب قوتها، وعلى رأسها استرجاع وحدتها الروحية/التاريخية ،فرؤيته الإصلاحية الوطنية كانت مرتبطة بعدد من السياقات، و في مقدمتها السياق المغاربي.

الكلمات المفتاحية: البعد الوحدوي المغاربي للحركة الوطنية الجزائرية، الكفاح المغاربي المشترك، أدبيات التيار الإصلاحي الوحدوية المغاربية ،جريدة الشهاب، جريدة البصائر، لمن أعيش؟، كوارث الاستعمار، جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية

Abstract:
The Algerian national movement upheld Arab Maghreb unity as a fundamental principle, evident in its struggle from the early 20th century. This unity theme permeated its programs and literary expressions, showcasing varied approaches within the reformist trend. The reformist perspective, intertwined with ideological frameworks and interpretations of Maghreb anthropology, emphasized the region's geographic unity and shared historical course. It envisioned a cohesive cultural entity where diverse peoples coalesced into a singular nation and homeland. Despite historical peaks, such as moments of glory, the journey faced setbacks, notably the Crusader colonial invasion. Liberation, according to the reformist ethos, necessitated comprehensive reform processes to reclaim the Maghreb's spiritual and historical unity. Rooted in the Maghreb context, this nationalist reformist vision sought to restore the region's strength.
Keywords: *The Pan-Maghrebism of the Algerian national movement, common Maghreb struggle, Maghreb unity reformist literature, Al-Shihab newspaper, Al-Basa'ir newspaper, "To Whom I Live ?", colonial disasters, North African Defense Front.*

1. مقدمة:

عرفت الحركة الوطنية الجزائرية خلال فترة الثلاثينات من القرن العشرين نشاطا مغاربيا مشتركا مثيرا للانتباه، حيث التقت و توحدت في مشروع تحرري مشترك مع العديد من الحركات الوطنية المغاربية، بمختلف اتجاهاتها و مشاربها الفكرية، و قد تجاوز ذلك الجانب النظري ليتحول إلى محاولات تنظيمية/نظامية من خلال السعي لإيجاد فضاءات موحدة لأجرأة الفعل التحرري، و تحويله إلى مشروع قابل للتجسيد ميدانيا، فالهيمنة الاستعمارية كانت موحدة، و مهددة لكل شعوب المنطقة في كيانها

الحضاري المشترك من خلال جميع مكوناته، من دين و لغة، وتاريخ، وثقافة، وحضارة، لذلك كان رد الفعل واحدا في كل الأقطار المغاربية للدفاع عن هذا الكيان، و في هذا السياق خاضت الحركة الاصلاحية الدينية المغاربية، و منها الجزائرية، الممثلة أساسا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذه المعركة بشكل مشترك، و تشابهت معالم أطروحتها الإصلاحية مع نظيراتها المغاربية في عدد كبير من البنود، بحكم دفاعها عن نفس المشروع، متخذة من مسألة الاصلاح منطلقا للتنظير، وموضوعا للتعبئة، من أجل استنهاض الهمم ،و كشف السيطرة الاستعمارية في هذه المنطقة ، فقد تجاوزت خطورة هذه الأخيرة الحدود الجغرافية، التي هي أصلا من صنعها للتفريق بين شعوبها ،ولا سيما في مجال المس بالهوية ومقومات الشخصية الوطنية (المغاربية)، وقد أدت هذه المنطلقات المبدئية/المذهبية إلى المساهمة الفعالة للحركة الإصلاحية الجزائرية في النضال المغاربي المشترك، فبقدر ما كان لها سياق قطري قدمت فيه العديد من المضامين الوطنية، كان لها سياق مغاربي، قدمت كذلك من خلاله مضامين أخرى مست الأقطار والشعوب المغاربية الأخرى، مهتمة بما كانت تعرفه من أوضاع و تطورات و أحداث ، فتألمت لقواصمها و انتكاساتها، و فرحت بانتصاراتها و تطلعاتها، فقد كانت القضية بالنسبة للحركة الإصلاحية الجزائرية واحدة ، فبدفاعها عن الكيان الجزائري و بسعيها لإصلاحه، و تحريره، و تنويره، بإرجاعه لمسارة التاريخي الطبيعي، كانت الشعوب المغاربية الأخرى كذلك معنية بذلك المشروع ، فمعالم القضية واحدة، و لم يكن لبعض الخصوصيات هنا و هناك أن تؤثر على هذا التوجه، و إذ اكان للنضال المغاربي في الحركة الوطنية الجزائرية الكثير من الممارسات و الآثار و الدلالات، فإن مساهمة الحركة الإصلاحية الدينية الجزائرية فيه هي جزء من كل ذلك ، فقد كانت المسألة بالنسبة لها متمثلة في الأرض الواحدة و الإنسان الواحد، والتاريخ المشترك، و المستقبل المترابط. و إذا كان التقهقر شاملا للجميع ، فإن النهضة كذلك يجب ان تكون شاملة. و عليه و مما سبق، يمكن معالجة هذه القضية من خلال طرح الإشكالية الأتية: فيما تمثلت معالم المقاربة التي اعتمدها هذا الاتجاه في تناوله هذه المسألة ؟

وقد تفرعت عنها جملة من التساؤلات تمثلت في ما يلي: ما هي أهم المضامين المرتبطة بهذه المسألة ؟ وكيف قام هذا الاتجاه بأجرأة هذا التوجه ؟ و ؟ وإلى مدى تلقى استجابة من الأطراف الأخرى؟

2. منطلقات العلاقات المغاربية للحركة الإصلاحية الدينية الجزائرية :

اعتبرت المقاربة الإصلاحية الدينية الجزائرية وحدة المغرب العربي ثابتا أساسيا، فقد كانت من مكونات المشروع الإصلاحي الشامل لكل العالم العربي و الإسلامي، الذي بدأ منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و مطلع القرن العشرين، و جعل من محاربة الاستعمار من مقتضيات النهضة و الإصلاح، فقد كان هذا العالم في مفهوم رواد الإصلاح الديني في الجزائر، المتمثلين أساسا في زعماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الإطار العام الذي جمع المغرب و المشرق، و العرب و البربر، كما أن إصلاح و تحرير الوطن، بالنسبة لهم يؤدي حتما إلى إصلاح و تحرير كل المغارب، لذلك اعتبرت الوحدة الجغرافية والتاريخية الدينية و الثقافية للمغاربة في سياق العالم العربي الإسلامي من منطلقات أي تصور إصلاحي وطني، فهذا الإرث المشترك كفيل بأن يعيد لهم مجدهم، كما قال بذلك البشير الإبراهيمي ما يلي :" إن لنا لماضيا عبقر يا حسدتنا عليه الأمم التوالي بعد أن جردت به الأمم الخوالي فمن مصلحتنا وحدنا أن نحيي ذكرياته في نفوسنا و أن نستمد منه قوة لأرواحنا"[1]، و ذلك لا يتعارض مع البعد الوطني/ المحلي ما يتميز به عن غيره، إلا ان ذلك لم، و لن ، يخرجه من دائرة هذه السيرورة الحضارية ،و ما يترتب عنها من انعكاسات[2]. وهو ما تضمنته مختلف الوثائق المرجعية لهذا الاتجاه ، التي ترجمت كل هذه المضامين في العديد من أدبياته ، من كتابات، و مقالات صحفية، و بيانات، و تصريحات لزعمائه في العديد من المناسبات،و غيرها مما هو مكتوب و منطوق، الذي كان يعبر عن هذا الاهتمام، فبعدهم الجغرافي عن تلك القضايا المغاربية لم يكن حاجزا أمام التعبير عن الشعور الديني بـ"وحدة الأمة المغاربية"[3]، و بالنسبة للأقلام الإصلاحية ، فإن الدفاع عن المغاربة و المغارب، بطرح قضاياهم و مشاكلهم و اهتماماتهم، والتطرق لهم في مختلف محنهم، و كشفهم للخطط الاستعمارية التي كانت تستهدفهم، كان بمثابة الواجب الوطني و لا يقل أهمية عن القيام بذلك لصالح للجزائريين، لأنه "حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ, وجدنا هذا المغرب العربي طرابلس, تونس, الجزائر, مراكش, يرتبط بروابط متينة ، روحية، ومادية تتجلى بها وحدته للعيان " على حد تعبير الشيخ عبد الحميد بن باديس.[4]

لم يكن الشعور والوعي بالوحدة المغاربية لدى زعماء الحركة الإصلاحية الجزائرية وليد الصدفة التاريخية، أو حدثا عابرا ، بقدر ما كان نتيجة لتداخل الظروف التاريخية بين هذه الأقطار مما أدى إلى تواجد جزائري في هذه الأقطار منذ مدة طويلة في إطار الهجرة نحوها، فقد كان للجزائريين حضورا متميزا في الحركة الوطنية التونسية من خلال العديد من الشخصيات مثل التوفيق المدني و أبو اليقضان و إبراهيم أطفيش، و حسن

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

قلاتي[5]، أما بالنسبة للمغرب الأقصى، فبالرغم من أن الحال لم يكن كما كان عليه في تونس، فإن النخبة الجزائرية كانت تتابع تطورات القضية المراكشية منذ بداية التكالب الأوروبي على المغرب الأقصى في مطلع القرن 20، و ما ترتب عنه من تقسيم و تفتيت له[6]، و لا يمكننا أن نتجاهل ما كان لحرب الريف من صدى لدى العلماء الإصلاحيين في الجزائر، فقد كتب الشيخ عبد الحميد ابن باديس بشكل مكثف في جريدة المنتقد، ففي جميع أعدادها تابع تطوراتها و تأثيراتها الإقليمية، و اعتبر قائدها مُحَّد بن عبد الكريم الخطابي صاحب الحق الشرعي[7]، كما اعتبر آخر أن الخطابي كان يسعى إلى تحقيق الاستقلال، و إقامة دولة قومية على أسس دينية إسلامية، و أن حركته هي امتداد للحركات الإسلامية في المشرق.[8]

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، فإن جل العلماء الإصلاحيين تميزوا عن غيرهم من العلماء التقليديين بتلك العلاقات المكثفة التي كانت لهم مع تلك الأوطان، سواء بتوجههم نحوها طلبا للعلم، كما هو الحال بالنسبة لتونس، حيث كان جامع الزيتونة ملتقى علميا بامتياز لهؤلاء، بالإضافة إلى جامع القرويين بالمغرب الأقصى، أو من خلال الزيارات التي كانوا يقومون بها من حين لآخر، خاصة في ظل الأوضاع المرتبطة بالحرب العالمية الأولى، فهناك العديد من الرحلات قام بها علماء إصلاحيون نحو تونس مثل إبن باديس في سنة 1921 و 1934 و 1936 و غيرها، و توفيق المدني في سنة 1930 و 1933 ،و العربي التبسي سنة 1948، و تلك التي قام بها حمزة بوكوشة إلى المغرب الأقصى[9] سنة 1948. كما كان لهذه العلاقات أشكال أخرى مثل الرسائل المتبادلة فيما بينهم حول عدد من قضايا الساعة، و المقالات الصحفية التي كانت تنشر لهم في الجرائد التونسية و المراكشية، فقد حافظ هؤلاء على ذلك الرصيد التواصلي ،ليتخذ أبعادا أخرى، خاصة و أنه في هذه الفترة، عرفت الأقطار المغاربية أحداثا مفصلية، أدت بها إلى يقظة إصلاحية شاملة، ففي الجزائر احتفلت فرنسا سنة 1930 بالذكرى المئوية للاحتلال، وجعلت من هذه المحطة معلما من معالم سياستها الاستعمارية[10]، و في تونس عقد بين 7 و 11 ماي 1930 المؤتمر الأفخارستي الدولي الثلاثون بكل ما يحمله من دلالات صليبية[11]، و في المغرب الأقصى أصدرت فرنسا في 16 ماي 1930 الظهير البربري الذي كان يهدف إلى التفريق بين مكونات المجتمع المراكشي[12]، و قد أدت هذه الهجمة الاستعمارية المتزامنة على الكيان المغاربي إلى يقين لدى الحركة

الإصلاحية الدينية في الجزائر(و حتى في الأقطار الأخرى) أن المشروع الاستعماري في المغارب واحد، ولا يأخذ بعين الاعتبار مسالة الحدود الجغرافية، و بالتالي فإن مواجهته تتطلب كذلك توحيد في التنظير والتنفيذ.[13]

وإ ذا كانت هذه التصورات النظرية لم تتحول إلى مبادرات نظامية تنظيمية ، فإن القضايا المغاربية بمختلف مواضيعها كانت حاضرة بقوة في ضمير الحركة الإصلاحية الدينية الجزائرية من خلال صحفها و جرائدها حيث تحولت هذه الأخيرة إلى منابر إعلامية بامتياز بالتطرق الدائم إلى هموم وانشغالات الشعوب المغاربية فقد كانت " المنتقد " و"الشهاب" و "البصائر" من المنابر المفتوحة لكتاب ورواد الحركة الوطنية التونسية أمثال مصطفى بن شعبان و صالح يوسف القيراواني، و علي مُحَمَّد شقرون الصفاقصي و الشاذلي خزندار[14]، و كتب عدد من رواد الحركة السلفية المراكشية في " الشهاب " أمثال مُحَمَّد مكي الناصري وعلال الفاسي و مُحَمَّد القري و مُحَمَّد غازي و مُحَمَّد بن أبي بكر السلاوي ، و أبو الحسن ،و في المقابل عرفت كذلك أدبيات و مقالات العلماء الإصلاحيين الجزائريين تواجدا ملحوظا في الأوساط الإصلاحية التونسية ، حيث كتب عدد، منهم مثل مُحَمَّد العيد آل الخليفة و الطيب العقبي و حمزة بوكوشة و أبو اليقضان ، في العديد من صحفها مثل " التقدم" و" الوزير" و " العصر الجديد" و" النهضة" و" الزيتونة "[15] ، أما بالنسبة للمغرب الأقصى فإنه كان للجزائريين حضورا متميزا في مواجهة نظام الحماية الفرنسي، حيث برزت العديد من الشخصيات في الساحة المراكشية أمثال أبو بكر بن عبد الوهاب العلوي الطنجي الجزائري ،و مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد القادر الغريسي الجزائري، و علي أبو طالب ،و علي الحمامي ، و الأمير عبد المالك نجل الأمير عبد القادر[16]، كما كان لآخرون ،مساهمات في عدد من الجرائد المراكشية مثل " المغرب " و " العلم" ، فهذه الأخيرة كتب فيها عبد الله شريط ،و أحمد توفيق المدني الذي اعترف من خلال مقال له فيها بجلائل أعمالها، وسمو روحها، و كفاحها المتواصل، و نضالها في سبيل نهضة الأمة، وتحريرها من قيود الرجعية، والاستبداد، و الظلم الاستعماري، و السير بها نحو الحرية و الاستقلال"[17] وفي مقال آخر وصفت العلم جريدة البصائر بأنها" صحيفة أيادي بيضاء على قضايا الشمال الأفريقي العادلة...ناطقة بالحق قوامة عليه ...وظيفتها السامية هي تبليغ الدعوة الإصلاحية"[18]. فلقد كان تداخلا و تناغما كبيرين بين كل هذه الأطراف لأن القضية واحدة بالنسبة للجميع ، و كان الدفاع عن الجزائر والجزائريين، بالنسبة للتيار الإصلاحي، يؤدي بالضرورة إلى الدفاع عن المغرب العربي والمغاربة ككل.[19]

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

لذلك كانت أدبيات التيار الإصلاحي في الجزائر خلال هذه الفترة تعبير عن " أنين طرابلس، وصرخة تونس ، و غياث مراكش". [20]

3. نماذج من أدبيات الاتجاه الإصلاحي الديني حول الوحدة المغاربية :

1.3 نظرة زعماء التيار الإصلاحي الديني للوحدة المغاربية :

لقد أدى ذلك التراكم في الرصيد النضالي الوحدوي لدى الحركة الإصلاحية الجزائرية إلى اعتبار كفاح المغاربة مسألة مشتركة و محورية ، وجب الاهتمام بها و متابعتها بمختلف الوسائل و الآليات، وبرز ذلك جليا في صحفها و في تصريحات زعمائها وشيوخها، و لذلك شكل حيزا هاما من نصوص و نشاطات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، و أعضائها البارزين سواء الشيخ عبد الحميد بن باديس أو البشير الإبراهيمي، أو توفيق المدني، فقد كان لجمعية العلماء علاقات وطيدة بالحركات الإصلاحية المغاربية الأخرى، خاصة التونسية بحكم أن عدد كبير من زعمائها ،و على رأسهم ابن باديس من طلبة جامع الزيتونة، كما كانت له عدة زيارات رفقة أعضاء من مكتب جمعية العلماء إلى تونس، و لقاءاتهم مع بعض علمائها أمثال الشيخ "عبد العزيز الثعالبي" و"الباوندي "القيرواني"، و قد تناولت الصحف و الجرائد الجزائرية و التونسية مضامين هذه الزيارات، و منها ما ورد في جريدة "الزهراء التونسية" بتاريخ 27 ديسمبر 1936 تعليقا على زيارة ابن باديس لتونس حيث زار العديد من المراكز العلمية مثل المدرسة الخلدونية التي ألقى فيها محاضرة أكد فيها أن" العلاقات بين العلماء الجزائريين و التونسيين ستؤدي إلى الوحدة الدينية و الاجتماعية و السياسية في إفريقيا الشمالية". [21]

فقد كانت تصريحات رجال الاصلاح كلها تصب في منحى الوحدة التاريخية لأقطار المغرب العربي ، وإذا كان للسياسة الاستعمارية الأثر السلبي الكبير على هذه الأوطان، فإن خطورتها مست كذلك هذا الكيان المغاربي المشترك، بتفريقه، و إبعاده عن مساه الحضاري، من خلال القضاء على كل الروابط المشتركة بين شعوبها، و كذلك بقطع صلتها عن الجهة الشرقية للعالم العربي الإسلامي، فقد تحدث أبي اليقضان عن المصير المشترك للشعوب العربية عند تأسيس جمعية الوحدة العربية بمصر، فقام بإظهار أهميتها بالنسبة للمغاربة، و علاقتهم التاريخية بها، وبالنسبة له فإنها تعبير عن وحدتهم الروحية، حيث قال بأن

الجزائريين وشمال إفريقيا يفكرون بهذه الوحدة ويشعرون بها شعورا عميقا انطلاقا من واقعهم الاستعماري الرهيب الذي فرق بينهم وجعل الإحساس لديهم بالحاجة إلى الوحدة من أي وقت مضى.[22]

كما كان للشيخ عبد الحميد ابن باديس كتابات وخطب تدعو للوحدة والتضامن المغاربي، حيث كان لمقاله الذي نشره في جريدة الشهاب لسان حال الجمعية تحت عنوان: "لمن أعيش؟" الصدى الكبير في الأوساط المغاربية ، حيث أكد على البعد الوحدوي المغاربي، واعتبر الأقطار الثلاث تونس والمغرب والجزائر وطن واحد توحده روابط عقائدية ولغوية وحضارية، وأثناء زيارة بن باديس لتونس للمرة الثانية خلال سنة 1937 ذكرهم بهذا المقال في محاضرته التي ألقاها أمام جمعية الطلبة الزيتونيين بحضرة محمد الصادق بسيس في حفل كبير. حيث جاء فيه: " أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص... نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطان أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال... وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى و المغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآدابا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة".[23]

كما كتب ابن باديس عدة مقالات في "الشهاب" عبر فيهما بصدق عن انتمائه المغاربي ووفائه له، بل ذهب بعيدا بتوجيهه اللوم و العتاب للمشرق العربي لتنكره و نسيانه لمنطقة المغرب العربي، ففي مقال له كتبه في شهر جويلية 1937 تحت عنوان" وحدة الشمال الإفريقي، أبناء المغرب العربي في المشرق العربي"[24]، ركز فيه على الوجود التاريخي العميق لمنطقة المغرب العربي المكونة من طرابلس و تونس و الجزائر، فهذه الأقطار ترتبط فيما بينها بروابط متينة روحيا و ماديا لا يمكن لأحد أن يشك فيها بما فيهم المشارقة الذين تجاهلوا و تناسوا امتدادهم المغاربي، حتى أن صحافتهم كانت تتطرق إليه و كأنه جزء من أواسط أفريقيا ، و يظهر من هذا المقال أن ابن باديس أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما كان هذا التجاهل موثق في مؤلفات إسلامية ضخمة مثل كتاب " ضحى الإسلام " لأحمد أمين[25] .إلا أن المغرب العربي قابل هذا النكران و الجفاء بالتضحية من أجل هذا المشرق بحد ذاته فقد " كان يبعث من أبنائه رجال السيف و القلم، من يذكرون به، و يشيدون و يلفتون نظر إخوانه المشارقة إلى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة و منابت للعز و الرجولة و معاقل للعروبة و الإسلام، ناهيك بالأمير عبد القادر المجاهد الجزائري وأبنائه الذين شاركوا في مشانق جمال و ثورة الغوطة، و بحفيده الأمير خالد زعيم الجزائر الذي مات بمنفاه بالشام، و سليمان باشا الباروني الطرابلسي، و الشيخ السنوسي الطرابلسي الجزائري الأصل، و بالشيخ طاهر الجزائري، و بالشيخ عبد العزيز الثعالبي الجزائري زعيم تونس، و الشيخ خضر حسين التونسي

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

الجزائري الأصل، و الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي، و غيرهم، فقد كان هؤلاء السادة الأعلام، يرفعون اسم المغرب العربي في الشرق العربي و يمثلون وحدة هذا المغرب".[26]

و نقلت مجلة الشهاب في نفس العدد خطابا لابن باديس منقولا عن جريدة الزهراء التونسية، الذي القاه بعد زيارته لتونس، بدعوة من جمعية الطلبة الجزائريين بتونس، والجمعية الوداية الجزائرية الاسلامية بتونس، و بالرغم من أنه طلب منه الحديث عن الجزائر فقط، إلا أنه اعتذر عن ذلك في مقدمة كلمته أن لا يذكر بقية الأقطار المغاربية الأخرى، معتبرا الشمال الإفريقي جسد واحد و أقطاره أعضائه، ولا يمكن أن تكون نهضة إلا بسلامة كل الجسد ، و إذا كانت هناك ضرورة للتطرق لجزء واحد فإنما يكون بمثابة حديث عن " جزء من كل، أو ذكر الأخ ما يسر إخوانه".[27]

و على نفس خط الشيخ عبدالحميد ابن باديس اعتبر البشير الإبراهيمي قضية الوحدة المغاربية، من صميم اهتماماته ،بل أنه يعتبر من الشخصيات التي كان لها دور كبير لصالح المغرب العربي على المستوى الخارجي بما قام به لصالحها من تعريف . فبمناسبة الأحداث الدامية التي عرفتها تونس في أوت1947[28] عبر الإبراهيمي عن تلك الرابطة المغاربية بتأسفه و اعتذاره للتونسيين لعدم مواكبتهم لهذه الأحداث نتيجة عدم صدور صحيفة البصائر بسبب عطلة المطبعة لأسبوعين متتالين بمناسبة شهر رمضان، و جاء في هذا المقال تحت عنوان: "كوارث الاستعمار" [29] أن " التألم و الامتعاض من قتل الأبرياء المسالمين، وأما الحزن و الأسى لإخواننا الذين ماتوا مظلومين..."[30].و للتعبير عن تألم الجزائريين لما أصاب التونسيين في هاته الحادثتين اعتبر ذلك بمثابة مساس بعضو من جسد واحد، و محال أن يتألم ذلك العضو و لا تتألم معه سائر الأعضاء، و لا يمكن لمثل هذه الكوارث الاستعمارية، و المصائب المتوالية، التي مصدرها واحد، إلا أنها ألفت بين قلوب المغاربة تأليفا جديدا محكم النسيج[31]، و"حولتهم إلى كتلة واحدة من لحم مرضوض، في لجة من الدموع المرفضة فلا يمتاز في مصائبنا معز من معزى".[32]

اعتبر الإبراهيمي أن القضية المغاربية، جزء لا يتجزأ من القضية العربية الاسلامية الشاملة ،لذلك قام بكشف لمؤامرات الاستعمارية للسيطرة على منطقة الشمال الإفريقي، بتفريقها و زرع الفتن فيها بإحياء النعرات الأثنية و العنصرية، ، لمحاربة عروبتها و بالتالي يتم تجزئتها و تسهيل السيطرة عليها ، وهو ما ورد

في المقال الذي نشره في جريدة البصائر سنة 1951 تحت عنوان:" عروبة الشمال الافريقي"[33]، و كانت مقدمته تعريف تاريخي بسكانه ،الذين بالرغم من اختلاف الأصول التي انحدرت منها دمائهم و تنوع عاداتهم و تقاليدهم ،فإنهم " أثبت أساسا ،و أقدم عهدا، و اصفى عنصرا، من إنكليزية الإنكليز و ألمانية الألمان "[34]، و مما يجب الإشارة إليه أن الإبراهيمي لم ينفي اختلاف أصول هؤلاء السكان إلا أن قوة وروحانية العروبة استطاعت القضاء على " بربرية كانت منتشرة بهذا الشمال و بقايا آرية كانت منتشرة فيه، ففعل الزمن الطويل فعله حتى نسي الناس و نسي التاريخ أن هنا جنسا غير عربي" [35]،وبالنسبة للإبراهيمي فإن هذا المسار التاريخي الطويل و الحافل بالأحداث هو الذي جعل من هذه المنطقة وطنا واحدا لم تفرقه إلا الممارسات السياسية/المذهبية في عصوره الوسطى بقيام الدويلات الإسلامية هنا وهناك، ثم جاء الاستعمار ليمارس هذا التفريق بإنكار عروبته أولا ، و يعمل " لمحوها بالفعل و هو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، و قتل الموجود بالمعدوم، ليتم له ما يريد من محو و استئصال لهما معا "[36]، فالاستعمار، بالنسبة للإبراهيمي، يعلم أن هذه المجال الجغرافي عربي و أطلق على سكانه بالعرب تمييزا عن الآخرين ، و لكنه يسعى لفصله عن امتداده التاريخي، ثم وضع حدود وهمية بين شعوبه الواحدة للسيطرة عليه، مرتكبا بذلك الجريمة الكاملة ،و سن لها القوانين ما يقويها و يغطيها و يسميها مصلحة.[37]

أما أثناء رحلته المشرقية الثانية بين التي بدأت سنة 1952، فقد اعتبر نفسه سفيرا و ممثلا لأقطار المغرب العربي الثلاث، حيث ورد ذلك في كل خطبه ورسائله التي وجهها إلى الشخصيات المشرقية و الهيئات السياسية، و جاء في العديد تصريحاته أن الأقطار المغاربية، وطن واحد اشترك في هذا البلاء الاستعماري، وبقدر ما تحملت الكثير من الآلام مع بعضها البعض، تقاسمت كذلك آمالا في التحرر و الوحدة المصير المشترك، ففي خطاب له ببغداد سنة 1952 قدم تحية للحضور باسم" الشمال الأفريقي الموحد الجبار على الأعداء و على العوادي الثائر على الهوان و الظلم...لا مفرقا لأجزائه و لا معترفا بالحدود التي خطتها يد الظلم و العدوان...إنه بقية مما فتح عقبة و المهاجر و حسان...و إنه لامتداد لوطنكم الأكبر"[38].و في نفس السياق قدم القضية الجزائرية كجزء من قضية الشمال الإفريقي ،معتبرا الحدود الفاصلة بين شعوبه خطتها يد الظلم و العدوان و أنه" فلذة من كبد الاسلام، وقطعة من وطن العروبة الكبير... وإنه لامتداد للوطن الأكبر، و حامل لأمانة الأجداد...و فيه كنوزا من تراث العربية و الإسلام، لطالما حاول الاستعمار القضاء عليها"[39]. وعبر أثير إذاعة بغداد ألقى الإبراهيمي العديد من الخطب للتعريف بالقضية المغاربية للعراق و للمشارقة عموما، و في واحدة منها اعتبر الشمال الأفريقي قطعة من

أوطان الإسلام ، وأن سكان أقطاره الثلاث تونس و الجزائر و مراكش ،الذين تجاوز عددهم الثلاثين مليون نسمة، هم من المسلمين العرب، و بالرغم كل ما قام به هذا الاستعمار الجاثم على شمال أفريقيا من مشاريع لطمس هويتهم و القضاء على بعدهم الحضاري، فإنهم بقوا أشداء في إسلامهم وعروبتهم[40].وفي سنة 1954 تأسف الإبراهيمي عن حالة التشتت التي تعرفها الحركات الوطنية المغاربية ،و وجه نداء للوطنيين المغاربة من جزائريين و تونسيين و مراكشيين نداء للوحدة في العمل ، باعتبارها السلاح الوحيد الذي يستطيعون به التخلص من الاستعمار " فالعدو واحد و يجب لقائه في ميدان واحد برأي واحد وصف واحد"[41].و لا سبيل لاسترجاع حرية الشعوب المغاربية إلا بالوحدة و الإخلاص لها.[42]

كما يعتبر الشيخ الفضيل الورتلاني من بين الشخصيات الإصلاحية الجزائرية التي دافعت عن المسألة المغاربية، فجعل منها قضية جوهرية منذ انتقاله للقاهرة للدراسة في جامع الأزهر سنة 1940 ، ثم تأسيسه سنة 1949 بالقاهرة لمكتب لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بعد أن كان ممثلا لها في باريس بين سنتي 1936 و 1940 ، و حينها شارك سنة 1937 في المؤتمر المغاربي الذي دعا إليه شكيب أرسلان، وقد اتفق جل الدارسين أن القضية التحريرية في شمال أفريقيا أصبحت في الصدارة نتيجة لما قام به الورتلاني من دعاية لها في الأوساط المشرقية، سواء بشكل فردي، أو من خلال "جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية"، التي كان سكريتيرا لها منذ سنة 1944، فقد كان" كتيبة كاملة العدة و العدد والهدف، من أجل تحرير الوطن الجزائري والشمال الأفريقي من نير العبودية و الاستعمار"[43] .و كان من أشد أعداء تفرقة المغاربة على أساس عرقي أو مذهبي و سياسي، معتبرا المغاربة من دين واحد و أرض واحدة و ان جهادهم سيكون من أجل الحرية و الوحدة[44]. فقد دفعته غيرته عن هذه المنطقة إلى الاحتجاج لدى إدارة جريدة "الحياة " اللبنانية بعد أن أصدرت هذه الأخيرة مقالا حول عدد سكان المغرب العربي ،فأرسل لها رسالة اعتبر فيها أن كاتب المقال بقدر ما بالغ في عدد سكان الأقطار العربية الأخرى، أجحف في حق هذا "المغرب المسكين"، بإنقاصه لثلث سكانه، و اعتبر ذلك ازدراء لهذه" البلاد المكافحة الصابرة صبر الأنبياء...التي حظها من طرف إخوانها العرب قليل حتى في النظريات التي لا تكلفهم خيلا ولا مالا"[45].وما يجب الإشارة إليه أن "العقدة المشرقية" اتجاه المغرب العربي كانت حاضرة بقوة في أدبيات

الورتلاني ، سواء ما كتبه أو صرح به هنا و هناك ، ففي حوار له مع جريدة " بيروت المساء" تحت عنوان " أيها العربي ماذا تعرف عن المغرب العربي"[46]، أكد على أنه إذا كانت القوى الكبرى مثل الأمريكان يسعون للوحدة و التكتل على مستوى القارات بمختلف المسميات السياسية و الاقتصادية ، و مستعدين للتحالف مع الشيطان إذا تحققت مصلحتهم في ذلك ، فإنه أولى بهذه الشعوب المستعمرة و المقهورة أن تتوحد و تتكتل ،و من بينها " العرب المساكين" الذين يزيد عددهم عن ستمائة مليون نسمة و " يدينون بعقيدتهم و يتوجهون خمس مرات إلى كعبتهم...و يشغلون مساحة تزيد عن ثلاثين مليون من الكيلومترات المربعة تحمل فوقها و في بطنها كل مقومات الحياة السعيدة، و لكنهم للأسف ما فطنوا أن التعارف بينهم و لو لمجرد المصلحة فضلا عن الروابط المثالية الأخرى التي يؤمن بها جميع الناس ، إنما هي عملية مقدسة تؤدي إلى إسعادهم و إعزازهم"[47].و قد اعتبر الورتلاني أن المغرب العربي أرضا و سكانا والذي يشكل نصف الأمة العربية مهمل في مخيال المشارقة الذين يعرفون باريس و مرسيليا و نيويورك و واشنطن أكثر مما يعرفونه عن فاس و الدار البيضاء و قسنطينة و عنابة و الجزائر، و يعرفون عن الصينيين و الكوريين أكثر مما يعرفونه عن إخوانهم في المغرب العربي.[48]

و في خضم دفاعه عن الوحدة المغاربية باعتبارها ضرورة مبدأيه و مصلحية ، اعتبر في حوار له مع جريدة " الجريدة " اللبنانية أن أبناء المغرب العربي تربطهم وحدة الجنس و اللغة و الدين و المذهب الفقهي، و إذا كانت محنتهم الاستعمارية هي آلامهم الموحدة، فإن الوحدة المغاربية هي آمالهم الموحدة و واجبهم المقدس.و قد أدرك الاستعمار خطورة تحول هذا الحلم إلى واقع و يصبح أمام ثورة مغاربية في المنطقة، لذلك عمل كالشيطان و قام بكل شيء يحول دون أن تتحقق هذه الوحدة[49]، بما في ذلك السعي لزرع الفتنة بين سكان المغرب العربي و الادعاء أنهم مشكلون من عنصرين متنافرين أحدها عربي الذي يسيطر على العنصر الثاني المتمثل في البربر، و أنه على مر الزمن كانت هناك عداوة و بغضاء بينهما، و عليه فإنه يجب على العنصر المقهور أن يقاوم العنصر القاهر و طرده من البلاد[50]، و لكن الحقيقة التي تثبتها الوقائع التاريخية و يعلمها الجميع أن " ثلاثون مليونا من سكان المغرب اليوم كلهم مسلمون على قلب رجل واحد في شعورهم الديني و عواطفهم التقليدية، و ليس بينهم نفران إثنان يشعر أحدهما بالسيادة و الغلبة نحو الآخر و الجميع يشهد أنهم عرب سواء أكان ذلك بالأصالة أو بفعل الاستعراب الذي تم بمرور الزمن والاختلاط..."[51]،و كل ذلك سيؤدي حتما إلى وحدة أبناء إفريقيا الشمالية رغم أنوف المستعمرين[52].

وما أبدع فيه الورتلاني في التعريف بالقضية الشمال أفريقية أنه طالب أن يكون لها يوما مثل ما لفلسطين

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

يومها،فبالرغم من أنه ذكر بأن ما قدمه العرب و المسلمين لفلسطين العزيزة أقل بكثير مما يجب أن يكون مقارنة بما تتلقاه الحركة الصهيونية من دعم من الغرب و الشرق ،فإن هناك منطقة المغرب العربي المكونة من تونس و الجزائر و مراكش التي هي الأخرى كانت تعاني، و أصابها ظلما كبيرا كذلك من طرف العرب، وهي الأخرى كانت تعيش حينها ظروفا مشابهة لما كانت تعرفه فلسطين، و بالرغم من ذلك "لم يقسم العرب لهذه الكتلة نصيبها الكامل حتى من الكلام الملهب للشعور المعبر عن الاستياء المدلل عن التضامن و الألم المشترك..."[53]. و ذهب االورتلاني في هذا المقال في الدفاع عن الثلاثين مليون من المغاربة بوصفهم بالصبر و الانسجام، والمحافظين على بعدهم العربي و الإسلامي، و لكنهم ينتظرون من إخوانهم المشارقة مبادرة تضامنية تبعث فيهم الأمل، و تؤكد لهم أن لهم امتدادا حضاريا يصل إلى الخليج العربي، و " يريدون فقط بإلحاح شديد أن يلمسوا شعورهم متدفقا و قويا نحوهم...في صورة أقوى و أوضح و أعم بتخصيص يوم يطلقون عليه يوم أفريقيا الشمالية المجاهدة.." [54].و طالب أن يصاحب ذلك اليوم إضرابا عاما في كل الدول العربية ،و أن يتصدر الصحف العربية، و أن تؤسس اللجان التضامنية لجمع المساعدات للسكان المتضررين من السياسة الاستعمارية، و من أهم ما جاء كذلك في هذا النداء مطالبته للحكومات العربية بطرح قضية المغرب العربي لدى "الدولة الفرنسية الظالمة بالصراحة و الوضوح".[55]

أما في سياق " جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية " فقد كان للورتلاني دور محوري في طرح القضية المغاربية في الأوساط المشرقية ، ففقد اعتبر أن الحركات الوطنية المغاربية كانت متفرقة و كل واحدة منها كانت تعمل لحسابها القطري ،و عند تأسيس الجبهة سنة 1944 تحت رئاسة شيخ الأزهر السابق الشيخ مُحَمَّد الخضر حسين و تولى هو فيها الأمانة العامة ، أصبحت الوحدة النضالية أقرب إلى التحقيق، بعد ان تم جمع شمل الهيئات السياسية القطرية المغاربية، قد استطاعت هذه الهيئة أن تقدم الكثير لشعوب المغرب العربي، على رأسها تأكيد مصيرها المشترك و ضرورة النضال الواحد و الموحد و " أبلت بلاء عظيما في سبيل تنمية روح الاستقلال و الوحدة في نفوس أبناء المغرب العربي عامتهم و قادتهم... و تمكنت من إشاعة هذه المعاني في بلاد الشرق شعوبهم و حكوماتهم، و أصبحت كلمة الاستقلال و كلمة الوحدة من التحيات المفضلة عند المغاربة جميعا".[56]

لقد قامت الجبهة بنشاط مغاربي بامتياز في مصر حيث قدمت الكثير من العرائض و البيانات حول كفاح المغاربة، و لم تترك اية فرصة او مناسبة إلا و طرحت هذه القضية في صيغة من الصيغ الاحتجاجية، ففي سنة 1947 أصدرت الجبهة بيانا تحت عنوان " الثورة الاستقلالية الدائمة في شمال أفريقيا"[57] جمعت فيه بين مقاومة الجزائريين تحت قيادة الأمير عبد القادر في الجزائر ،و ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، باعتبارهما استطاعا هز الأركان الاستعمارية في المنطقة، و طالبت من جامعة الدول العربية مشاركة المغاربة في إدارتها سواء في هياكلها المركزية بالقاهرة أو بممثلياتها المنشرة عبر العالم و بصورة خاصة في واشنطن ولندن ، خاصة و أن يوجد منهم كفاءات تؤهلهم لأن يشاركوا في العمل للقضية المغاربية حسب مواثيق و النصوص القانونية للجامعة العربية[58].و في مذكرة أخرى وجهتها الجبهة لهيئة الأمم المتحدة ، تضمنت سردا تاريخا للغزو الفرنسي لمنطقة شمال أفريقيا تحت مختلف المسميات، غزوا في الجزائر و حماية في تونس والمغرب الأقصى ، ثم تناولت طبيعة السياسة الاستعمارية التي كانت اعتداء فضيعا على النفوس و لأعراض والأموال وتصرفا مستبدا غاشما، مستعينة بذلك بفئة المستوطنين الذين استباحوا الأرض و استعبدوا الإنسان ، ثم ختمت هذه المذكرة بمطالبة المجتمع الدولي بتحمل مسؤولياته فيما يخص السلم العالمي ، الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بمساعدة الشعوب المغاربية للتخلص من الهيمنة الفرنسية[59]. و في سنة 1947 أرسلت الجبهة رسالة إلى الملك السعودي عبد العزيز آل سعود أثناء زيارته لمصر حتى يطرح قضية الأقطار الثلاث تونس و المغرب الأقصى و الجزائر أمام الهيئات الدولية، و بنفس صيغة المذكرة السابقة جاء في مدخلها عرضا تاريخيا للاستعمار الفرنسي في المنطقة ثم لما قام به من سياسات قمعية على جميع الأصعدة، فقد كانت اضطهاد للعرب المسلمين، و قام بكل ما يجعلهم يعيشون في فاقة و حرمان، و قام بكل جهوده لإخراجهم من دينهم الإسلامي و من قومتهم العربية، و لأن خلاصهم واجب شرعي يسأل عنه كل عربي و كل مسلم، فإنه جاء في هذه الرسالة دعوة للملك السعودي لمساعدة هذه الشعوب وإنقاذهم مما يعانون منه بكل الوسائل، و بصورة خاصة بطرح قضيتهم أمام العالم العربي و الإسلامي.[60]

كانت مساهمة الشيخ الفضيل الورتلاني في التعريف بالقضايا المغاربية نموذجا معبرا عن اهتمامات التيار الإصلاحي الجزائري بها، سواء على المستوى الفردي بما أصدره من بيانات، و ما كتبه من مقالات صحفية في العديد من الجرائد المشرقية ، أو بما قام من تعريف لها في مختلف الدول التي زارها ،أو بصفته سكريتيرا لجبهة الدفاع عن شمال أفريقيا، فبالرغم من أنها اختفت عن الساحة في سنة 1948 ليحل محلها مكتب المغرب العربي ، إلا أنه جعل منها منبرا لصالح المغارب ليطلع المشارق بقضاياهم، و كذلك ليعاتبهم في

كثير من الأحيان، لأنهم لم يهتموا بهم ، رغم أنهم كانوا يعانوا الأمرين ،و شعروا في العديد من المرات أنهم في عزلة عن الذين كاوا ينظرون إليهم كما ينظر الناس إلى الشمس التي تمدهم كل صباح بالنور والحرارة[61]. وكما كان يشدد في تذكير العرب في المشرق شعوبا و ملوكا أن لهم في المغرب إخوة ينتظرون منهم دعما و مساندة ، بقي يطالب الجامعة العربية بضرورة قيامها بواجبها القومي نحوهم، و لم يفرق أبدا بين الشعوب المغاربية ،الذين دافع عنهم في كل مناسبة فالنسبة له القضية واحدة، و الدفاع عن التونسيين و المراكشيين و الجزائريين في نفس المستوى واجب شرعي، و بالرغم أن الحركات الوطنية المغاربية تعرضت للعمى من طرف المستبد الاستعماري، فإن الجبهة كانت تحمل مشعل الدفاع عن قضايا بلدان المغرب العربي، وأصبحت لسانه في كل مناسبة دينية أو تاريخية لدى الحكومات و والهيئات الدولية".[62]

و من الشخصيات الاصلاحية الجزائرية الأخرى التي كان لها وعيا و إدراكا بالقضية المغاربية احمد توفيق المدني ، فقد بدأت نشاطاته الوحدوية قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 ، فهو من مواليد تونس سنة 1898 ، و أتم كل مساره الدراسي في جامع الزيتونة، و كان له نشاطا وطنيا مبكرا في تونس، ففي سنة 1911 شارك في مظاهرات" "الزلاج" إلى جانب عدد كبير من الجزائريين، و كان له دورا كبيرا في تعبئة الجماهير ضد القرار الفرنسي بمصادرة أراضي مقبرة الجلاز ، بقوله"...كنت من بين الذين يطوفون على الأسواق والمقاهي، وأنادي بأعلى صوتي :نموت ولا نسلم وأنادي بأعلى صوتي :نموت ولا نسلم جلازنا، ويتأثر الناس بكلماتي أكثر مما كانوا يتأثرون بكلمات من هم أكبر مني..."[63] ، وفي سنة 1915 انخرط في "لجنة صغار الثوار التونسيين" التي كانت تؤمن بالعمل المسلح لتحرير المغرب العربي، وذلك ما دفع بالسلطات الاستعمارية إلى سجنه لمدة أربع سنوات[64]، و في سياق مشاركة الوفود العربية في مؤتمر الصلح سنة 1919 ، ساهم توفيق المدني في صياغة مطالب الوفد التونسي نقلها عبد العزيز الثعالبي الى هذا المؤتمر ،و بعد ذلك ساهم في تأسيس "الحزب الدستوري التونسي " رفقة الثعالبي، و كان ضمن الوفد الذي استقبله باي تونس " الناصر" و تسلم منه لائحة المطالب التي كانت سترفع للسلطات الاستعمارية، و أدى نشاطه الكثيف ضمن النخبة التونسية إلى تعيينه أمينا عاما مساعدا للحزب الدستوري سنة 1921[65] ،و من أهم أعماله في هذه الفترة إصدار الجامعة الأمريكية ببيروت سنة

1923 للجزء الأول من كتابه "تقويم المنصور " ، فقد جاء في غلافه أنه كان " رئيس لجنة الخلافة " و كذلك " كاتب الحزب الحر الدستوري التونسي"[66] ،وكانت مضامينه عبارة عن مجموعة كبيرة من البحوث المتعددة المجالات حول العالم، من تاريخ و أدب و شعر و جغرافية و غيرها من العلوم ، و جاءت في مقدمته في شكل إعلان على البعد المغاربي لهذا الكتاب بقوله: "تمكنت و الحمد لله من إصدار هذا التقويم بعد تذليل الصعوبات و اجتياز العقبات ،و الفضل الأكبر في ذلك راجع إلى شعب الشمال الأفريقي الماجد الذي أمدني بقوته و نشطني بمساعدته ، فكان التقويم منه و إليه "[67]، و لذلك ليس من باب الصدفة أن تتضمن أبوابه أخبار و معارف عن أفريقيا الشمالية، و قد كانت مثيرة و متنوعة بين الجغرافيا و التاريخ ، بتناوله في أحد أبوابه الآثار العربية القديمة[68] ، و حتى الشعر تناول باب آخر مجموعة من القصائد لشعراء من المغرب العربي[69] ، كما استحدث جائزة لأحسن شاعر مغاربي سماها " جائزة المنصور".[70]

و في سنة 1923 واجه توفيق المدني قانون التجنيس في تونس ، و اعتبره كفر، و ردة، و خروج عن الملة، و من موقعه كأمين عام للحزب الدستوري التونسي قام بحملة كبيرة لكشف أبعاده الصليبية[71]، و قد اعتبرت ذلك السلطات الاستعمارية تجاوزه لكل الحدود ، و بدأت في التخطيط لعزله عن النشاط الوطني التونسي ، فكانت أحداث المغرب الأقصى ذريعة جد ملائمة بالنسبة لها للقيام بذلك، فقد كتب المدني في 25 ماي 1925 مقالا حادا في جريدة " أفريقيا"، التي كان من هيئة تحريرها، حول ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، و كان عنوانه : "الحقيقة عن حوادث الريف، ليحيا الريف حرا مستقلا " فضح فيه الممارسات الاستعمارية الفرنسية في المغرب الأقصى بعد تدخلها في هذه الثورة بعد انهزام إسبانيا هزيمة نكراء في موقعة " أنوال" في 17 جويلية 1921 ، و بعد عشرة أيام من صدور المقال سلمت السلطات الفرنسية توفيق المدني إلى الشرطة الفرنسية بمدينة عنابة في الجزائر[72]. و تبدأ بذلك مرحلة جديدة من حياة كفاح توفيق المدني في إطار الكفاح الوطني و المغاربي، فبحكم تكوينه الإصلاحي الديني فإنه اندمج بسهولة في التيار الإصلاحي الجزائري ، و صار له مكانة مرموقة في الأوساط الإصلاحية الجزائرية ، و ترك بصماته واضحة في أدبياتها، و لكن ذلك لم يؤدي به إلى قطع صلته ببعده الشمال أفريقي المتمثل في المسألة التونسية بالنسبة له ، حيث ينسب له قوله أنه عاش في تونس حوالي ثلث قرن بروح جزائرية، و بعد إبعاده إلى الجزائر أصبح جزائريا بروح تونسية[73]،.و بقيت صلته بتونس متواصلة في عدة أشكال سواء في شكل زيارات لها كما حدث ذلك في كل من سنة 1930 و 1933 و 1945 ،أو من خلال

المراسلات التي كانت له مع عدد من الزعماء الوطنيين التونسيين ، مثل عبد العزيز الثعالبي ،الذي لم تنقطع اتصالاته معه ، و محي الدين القليبي ، و أمير الشعراء التونسيين مُحَمَّد الشاذلي خزندار ، و عالم الزيتونة الشيخ مُحَمَّد الفاضل بن عاشور ، و آخرون.[74]

على عكس الكثير من رجال التيار الإصلاح الديني في الجزائر ، فإن المدني سعى إلى تحويل ذلك الإيمان بقضايا المغرب العربي إلى البحث عن دعم لها من طرف القوى العالمية و بصورة خاصة من ألمانيا التي رأى فيها فرصة تاريخية للتخلص من السيطرة الاستعمارية الفرنسية، حيث جاء في مذكراته أنه أرسل رسالة إلى شكيب أرسلان أثناء الحرب العالمية الثانية يطلب منه الاتصال مع وزير الخارجية الألمانية "فون ريبنتروب *Von Ribbentrop* " حول وضع بلاد شمال افريقيا، وموقف ألمانيا اتجاهها، و جاء فيها ما يلي: " أشرت لشكيب أرسلان أن يقترح عليه تشكيل حكومة اتحادية للمغرب العربي تشمل تونس والجزائر والمغرب وليبيا، يكون فيها للمستعمرين الأجانب حق المواطنة ويشاركون في مجالسها واداراتها حسب نسبتهم العددية، على أن تكون حكومة تونس تحت رئاسة الزعيم بورقيبة، وحكومة الجزائر تحت رئاسة مصالي الحاج، وحكومة المغرب تحت رئاسة علال الفاسي، وحكومة ليبيا تحت رئاسة بشير سعداوي، وأكدت له أنه إذا ما تشكلت هذه الحكومة وأرغم الفرنسيون على قبولها، فإن مليونا على الأقل من رجالها الأشداء سيقومون قومة رجل واحد للدفاع عن حريتهم واستقلالهم... وسألته أن يعرض عليه فكرة تأسيس دولة الاتحاد المغرب الكبير و يحبذها له، ويبن جدواها بالنسبة لقضية المحور...".[75]

كما ذكر المدني في مذكراته أن نقاشا جرى بينه وبين مجموعة من رجال الإصلاح في الجزائر بحضور عبد الحميد بن باديس حول موضوع الوحدة المغاربية وكيفية تجسيدها على أرض الواقع، و عبر عن رأيه فيه قال أنه: " مؤمن بوحدة المغرب العربي جنسا ولغة وأخلاقا، وإنه تحت موطئ أقدام مستعمر متجبر..."[76]،و لم يتوقف عند تشخيص هذه الأوضاع بل طالب بأن يكون هناك مبادرة جزائرية للم الشمل المغاربي بالقيام بخطوات فعلية بقوله : "...فهل من عمل ممكن على هذه الأرض الجزائرية التي طال جهادها وشاعت وذاعت أمجادها ، يربط بين القطرين(الجزائر و تونس)، ويوحد ما بين الجهادين؟ ريثما نتصل بالجزء الثالث المغرب الأقصى لنضم قوته لقوتنا فنوحد جهادنا ونواصل كفاحنا؟..."[77]. وقد عبر في هذا

اللقاء عن رؤية استراتيجية شاملة لتوحيد الكفاح لتحرير كل أقطار المغرب العربي التي لها عدو واحد ، و كان يسعى لتحقيق هدفه بالقهر و الإفناء[78]. و في سنة 1951 بعث توفيق المدني برسالة إلى جريدة "العلم" لسان حال حزب الاستقلال المغربي ، مشيدا بدورها وكفاحها المتواصل ونضالها في سبيل تحرير الأمة المغاربية من قيود الاستعمار، ومن بين ما جاء فيها: "إنني لأشهد الله وأشهد الوطن وأشهد الصادقين من هذه الأمة الحركة الكريمة أن الجماعة التي التقت حول (العلم) الأشم منذ بروز نجمه الوضاء إلى يومنا هذا فقد كانت جماعة صدق وإخلاص وعزيمة، وفتحت المغرب فتحا جديدا، و تقف الموقف الثابت المحمود في وجه الاستعمار... وتحت طائلة رقابة سوداء، أنهم قاموا بالواجب في ساعة الضيق والعسرة فاستحقوا تقدير الوطن، وليسجل لهم تاريخ النظام التحرري صفحة رائعة ...".[79]

2.3 البعد الوحدوي المغاربي من خلال الصحافة الإصلاحية الدينية:

بالإضافة إلى نشاط الشخصيات الإصلاحية الدينية حول مسألة الوحدة المغاربية، فقد كانت هذه الأخيرة حاضرة بقوة في جرائد وصحف الاتجاه الإصلاحي الديني حيزا وركنا هاما للقضايا المغاربية، كما كانت وحدة المغرب العربي من منطلقات نشاط زعيمه ابن باديس، فقد كانت " شغله الشاغل، والركن الركين الذي قامت عليه دعوته، فجعل من الأركان الثابتة، وأبواب القارة لمجلته الشهاب ركنا بعنوان الشمال الافريقي، لتتبع ما يجري في أقطار المغرب العربي من أحداث، ويتفاعل مع قضاياه إيمانا منه بوحدة أقطار المغرب العربي"[80].و في سنة 1937 كتبت جريدة الشهاب مقالا كانت مضامينه في شكل نداء للوحدة المغاربية، و قال كاتبه أن الجزائريين يمدون من وراء تلك الحدود الوضعية أيديهم المخلصة إلى رجال المغرب و مجاهديه الأحرار، و جاء في نفس المقال أن هذه الوحدة موجهة إلى " الإخوان من الأم والأب وإلى شركائنا في الأصل والنسب، وإلى الذين خلقنا الله معهم أمة واحدة، تشترك في وطن يربط الأطلس بين أجزائه رباطا وضعته يد الله فلا تستطيع أن تحله يد البشر، و تشترك كذلك في لغة واحدة ودين وعوائد وتقاليد، وتشترك في أيام خالدة...".[81]

وفي شهر جانفي سنة 1948 صدر مقال آخر لجريدة البصائر لسان حال الجمعية لأحد العلماء الإصلاحيين المسمى فرحات بن الدراجي[82] بعنوان: "منطق الاستعمار" الذي تناول تصويت فرنسا في منظمة الامم المتحدة لصالح قيام ما يسمى بـ"دولة إسرائيل" في أرض فلسطين ،التي اعتبرتها فرنسا " موطن اليهود التاريخي منذ عشرين قرنا" ، و جاء فيه أنه على فرنسا الخروج من شمال أفريقيا لأن كان موطنا لأهله قبل قرن فقط[83]، و مما جاء فيه: " لقد عرضت قضية فلسطين على منظمة الأمم المتحددة و صوت

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

أعضائها بأغلبية ساحقة على تقسيمها لدولتين، وكان نائب الحكومة الفرنسية في طليعة المصوتين (لصالح هذا القرار)...حجته في ذلك أن فلسطين كانت موطن اليهود قبل عشرين قرنا تقريبا... فهل تسلم لنا فرنسا شمال افريقيا من طرابلس إلى طنجة بهذا المنطق نفسه، وبهذه الحجة نفسها، لأن شمال افريقيا كان لأهله قبل قرن على أكثر تقدير لا قبل عشرين قرنا... ان مسلمي شمال افريقيا مازالوا يضجون بالشكوى ويطالبون باستقلال أوطانهم فهل تطبق عليهم القاعدة التي طبقت على اليهود في فلسطين؟".[84]

أما في شهر ماي 1948 فقد نشرت جريدة البصائر بيانا لعدد من الصحفيين التونسيين و هيئة أدبية تسمى بـ "الرابطة القلمية لشمال افريقيا" تم توجيهه إلى المندوب السويسري في مؤتمر حرية الصحافة والنشر بمدينة جنيف، و قد تضمن تنديدا و استنكارا بالتضييق الممارس من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية على صحافة شمال افريقيا، فقد جاء في هذا البيان أن هذه السلطات قتلت حرية الصحافة ،و خنقت كل الأصوات الحرة، و لم تترك للمغاربة أي وسيلة من الوسائل القانونية و السلمية للدفاع عن أنفسهم، و في خاتمة البيان قدم هؤلاء الصحفيين نداء استغاثة و استجارة " لرفع مصائب الجبروت، والحد من الأحكام العسكرية المرهقة للأقطار الثلاث..."[85]. و في أفريل 1950 نشرت البصائر في صفحتها الرئيسية نداء للزعيم التونسي محي الدين القليبي، وجهه للهيئات و الأحزاب المغاربية للتآخي، و توحيد صفوفها لتحقيق الاستقلال ،و قد تضمن مقارنة بين الشعوب الأوروبية و الشعوب المغاربية، فقد توحدت الأولى رغم اختلافاتها العرقية و الدينية و التاريخية و الثقافية ، و تجافت الثانية عن ذلك بالرغم من الذي جمعها فرق الأخرون، و لذلك يجب على هذه الهيئات أن توحد صفوفها في دائرة الأخوة الإسلامية، و قد تبنت البصائر هذا النداء و تمنت أن يكون له اثر حسن في نفوس زعماء هذه الهيئات، و يوحدون جهودهم و يتناصرون فيما بينهم لتحقيق وحدة و سيادة الشمال الأفريقي.[86]

وحتى عندما عرفت الحركات الوطنية المغاربية عدد من الخلافات و دخلت في صراع مع بعضها البعض سواء في الجزائر أو تونس أو في مراكش ، فإن صحافة الحركة الإصلاحية طرحت هذه المسألة و نبهت لخطورتها ، و نادت بضرورة العودة إلى جادة الصواب ، و الابتعاد عن النظرة الضيقة و ما يترتب عنها من انحرافات عن المسار الصحيح لكافة المغاربة ، و ذلك ما تضمنه مقال صدر في سنة 1950 تحت

عنوان : "نداء إلى أبناء المغرب الإسلامي كافة"[87]جاء فيه: "... لقد أضحى المغرب الاسلامي منذ فترة من الزمن مهدا لنزاعات طائفية وخصومات حزبية فرقت وحدته ...وفي الجزائر وتونس والمغرب تقوم أحزاب وهيئات و يعاكس بعضها بعضا ويفسد الواحد منها عمل الآخر، ولكل جماعة خطة وزعيم، وفد ابتدأ التنافس بين هؤلاء الأفراد منذ شرعت في الكفاح لتحرير وإصلاح ما أفسده الاستعمار... إن تحرير الشعوب لا يكون إلا نتيجة كفاح متواصل وإيمان بالحق الذي تكافح من أجله وتجاهد لاسترداده... فإما أن نقف أمة متحدة لها منهج واحد، يرمي إلى غاية واحدة واضحة... وإما أن نبقى على هذه الفتن الداخلية فنمكن الخصم من قهرنا في ميدان السياسة..."[88].و للتأكيد على هذه المناورات السياسية الاستعمارية تطرقت البصائر في عددها الصادر في سبتمبر 1950 لتطورات المسألة التونسية، و بصورة خاصة ما قدمته فرنسا من إصلاحات شكلية لا تتماشى مع الإرث النضالي للحركة الوطنية التونسية منذ مطلع القرن العشرين[89]، و بالرغم من أن الحزب الدستور الجديد قبل بها كبداية للحل النهائي، فإن ما جاء في هذا العدد بقدر ما يبرز هذه الخيبة ، فإنه يعتبر القضية التونسية تهم كل المغاربة، لأن "...الاستعمار كشف عن مقاصده في تونس في تشكيل الوزارة، و بما سمي هناك بالإصلاحات المنتظرة و الجوهرية، التي تحمل في أطوائها الكثير من الحقائق الناقصة..."[90]، كما أن هذه المناورات الاستعمارية، و الإصلاحات الشكلية، بالإضافة أنها أبقت الأوضاع السابقة كما هي، لا تتماشى مع الكفاح الطويل للشعب التونسي، الذي يعبر عن على ان القضية ليست قضية تونس وحدها بل هي قضية الشمال الإفريقي عامة[91].أما بالنسبة لموقف الحزب الدستوري الجديد و ما قام به من دعاية لصالح هذه الإصلاحات فإن ما جاء في المقال كان في شكل تأكيد على وحدة المصير، و أن ما يسر الجزائريين هو أن تكون"...الواجهة القومية الوطنية متكونة متينة، شاملة الديوان السياسي حتى تسير الأمة سير الموفق لتمحو مظلمة الحماية و تزاور عنها مرارة الاحتلال..."[92] .

واستمرارا لهذه الرؤية الوحدوية ، وبعد اندلاع الثورة التونسية ،و إعلان اليوم العالمي للتضامن مع تونس، كتبت جريدة البصائر في افتتاحيتها في 01 فيفري 1952 مقالا تحت عنوان: "اليوم الجزائري العظيم لإعلان التضامن والوئام مع الشقيقة العزيزة تونس المجاهدة"[93]،، تطرقت فيه لاجتماع الأحزاب الجزائرية بجميع أطيافها السياسية، ممثلة في الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية لمؤازرة الكفاح التونسي، ومن خلاله أعلنت فيه جمعية العلماء المسلمين تضامنها مع الشعب التونسي في تلك الظروف التي كان يمر بها، ولم تكن رئاسة كاتبها العام أحمد توفيق المدني لهذا اللقاء، إلا دلالة على مكانة الوحدة النضالية المغاربية

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

لديها، و حتى مضامين بيان هذا الاجتماع كانت في ذلك الاتجاه، فقد اعتبرت وحدة الكفاح المغاربي ضرورة، و هو السبيل الوحيد للتحرر من النير الاستعماري المشترك، و استبشرت خيرا بأحداث تونس، واعتبرتها البداية الفعلية لحصول المغرب العربي على حقه الكامل في الحرية و الاستقلال و أعلنت صراحة عن وقوف " أمة الجزائر، أمة الصلابة و الكفاح ، إلى جانب تونس المجاهدة ... لأنه موقف يمليه الواجب ، ويدعو إليه الشرف ، وهو بأمر من الله..."[94].

وغير بعيد عن "الشهاب" و" البصائر" و غيرها من الجرائد التي كانت ناطقة رسمية باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، صدرت بالعاصمة سنة 1948جريدة شهرية أخرى كانت محتوياتها ضمن المنظومة الإصلاحية الدينية تحت عنوان "افريقيا الشمالية" لصاحبها اسماعيل العربي، و إن كان لهذا الأخير علاقة هيكلية مع الجمعية بصفته رئيسا للمكتب الدائم للجنة التعليم العليا ، و كان من الأقلام الحاضرة بقوة في جريدة البصائر ، فإنه أصدر هذه الجريدة المستقلة تنظيميا عن الجمعية، و لكن مضامينها كانت وطنية إصلاحية و مغاربية بامتياز ، و استطاعت أن تجمع بين الاتجاه الوطني و الاتجاه الإصلاحي للحركة الوطنية الجزائرية[95] ،فالرغم من أنه لم يصدر منها سوى أربع أعداد ثم توقفت لصعوبات مالية، فإنها ساهمت في التواصل بين الحركات الوطنية المغاربية ، والعمل على توحيد الكفاح المغاربي المشترك فيما بينها، ومن مظاهر هذا التوجه ما جاء في افتتاحية العدد الأول حول المصير المشترك للأقطار الثلاث و مما جاء فيها ما يلي :"... لكن ما يقال على الجزائر يمكن أن يطلق بسهولة على شقيقتيها تونس ومراكش، ولا يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك"[96]، و بالرغم من محدوديتها الجغرافية فقد فتحت أبوابها لعدد من التونسيين للكتابة فيها ،فنشر في العدد الثاني رسالة للكاتب التونسي علي الجندوبي نقل فيه وقائع الذكرى الثامنة لوفاة الشيخ عبد الحميد ابن باديس التي أقامتها جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بقصر الجمعيات الفرنسية يوم 07 ماي 1948، واصفا ذلك بالحدث العظيم الذي جاءه الناس من كل جهة حتى اكتظت القاعة بأبناء ونخبة الشمال الافريقي من أقطاره الثلاث ، و استحضروا فيه هذه الشخصية العظيمة التي تركت بصماتها في الوطن المغاربي.[97]

لقد اثبتت الأدبيات التي انتجتها التيار الإصلاحي الديني، ابتداء من ثلاثينات القرن العشرين ،سواء بما قدمه زعمائه ، أو بما كتبته صحافته ، أن مسألة وحدة المغرب العربي كانت تعبيرا عن التداخل الكبير بين الحركات الوطنية المغاربية بصورة عامة، و الإصلاحية على وجه الخصوص، فقد اعتبر رجال الإصلاح الديني في الجزائر الشعوب المغاربية موحدة بالطبيعة الجغرافية و السيرورة التاريخية، و كانت الصحافة بالنسبة لهم أداة محورية لإحياء الوحدة الروحية في الأقطار المغاربية ، و ما فتئت كل كتاباتهم التأكيد على هذه المسألة و اعتبارها ضرورية للتحرر من النير الاستعماري أولا، ثم بعث موروثها الحضاري ثانيا. و هذا بالرغم من التطورات الفاصلة، و القاصمة، التي عرفتها الأقطار المغاربية ابتداء من خمسينيات القرن العشرين، و ما تركه من تأثيرات سلبية على هذا العمق النضالي الوحدوي المغاربي بالنسبة لكل مكونات الحركة الوطنية الجزائرية، بما فيها الحركة الإصلاحية الدينية ، حيث حلت المسارات القطرية محل المسار الوحدوي المغاربي ، و أصبحت الأولوية "مراكشية " و" تونسية " و أجلت الأولوية " المغاربية" إلى أجل غير مسمى[98]، و بالرغم من أن الجزائريون بقوا " في مؤخرة الركب، و يتعرضون إلى مصير من تجاوزته الأحداث" ،على حد تعبير بيان أول نوفمبر 1954، فقد حافظوا على ذلك الإيمان الوحدوي المغاربي، و جعلوا من " تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي و الإسلامي" من مرتكزات هذا البيان.. و هكذا و بالرغم من أنه لم يعد هناك تأريخ للحركة الإصلاحية الدينية الجزائرية إلا في سياق جبهة التحرير الوطني ، فإن التراكم الأدبي الإصلاحي حول مسألة الوحدة المغاربية بقي حاضرا بقوة في الوثائق المرجعية للثورة التحريرية ، فقد بقيت هذه المسألة حاضرة في نظرتها التحررية و البنائية ، و لئن ذلك لم يكن خاصا بهذا الاتجاه ، فإننا يمكننا اعتباره من أشكال تأثير هذا الاتجاه على التوجهات الكبرى لهذه الثورة[99].

4. خاتمة:

اعتبرت الحركة الإصلاحية الدينية الجزائرية المسالة المغاربية من صلب اهتماماتها النضالية ، و قد عبرت عن ذلك من خلال أدبياتها، فالنسبة لها المسألة القطرية جزء من الكل ، و لا يمكن أن يتم حل هذه المشكلة إلا في سياقها الجغرافي و التاريخي ، و لم يكن ذلك التصور من باب التكتيك أو الرؤية البراغماتية ، و لكنه كان قضية مبدأيه مرتبطة بطبعة المضمون الفكري للحركة الإصلاحية ، فقد كانت تعتبر ذلك واجبا دينيا مقدسا، و للتعبير عن ذلك قدمت إنتاجا صحفيا مكتوبا ضخما منذ مطلع ثلاثينات القرن العشرين، و تضامنت مع المغاربة في الشرق و الغرب و دافعت عن قضاياهم، و تألمت لأحزانهم و سرت

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

لمسراتهم ، و صدحت بحقهم في الحرية و الاستقلال في العديد من المناسبات، فبالنسبة لها فإن المغاربة جمعتهم الجغرافية الواحدة و صقلتهم السيرورة التاريخية في وعاء حضاري واحد منذ التاريخ البعيد، فتقاسموا التاريخ المشترك بكل تقلباته، و كانوا أمة واحدة في العديد من المسارات التاريخية. و نتيجة لهذا الطرح الحضاري فإن قراءة هذا الاتجاه لهذه الوحدة كانت روحية قبل أن تكون مصلحية أو منفعية، و في المخيال الجمعي لزعمائه فإن العمل من أجل عودة هذه الوحدة ضروري ، و فرض عين ، باعتبارها " المآل الروحي للعالم الإسلامي"[100]، كما أن تحرير منطقة المغرب العربي من السيطرة الاستعمارية تعتبر من مقتضيات النهضة الشاملة لهذا العالم في شرقه وغربه[101].

إلا أنه يقابل هذا الطرح النظري والمثالي لمسألة الوحدة المغاربية لدى هذا الاتجاه ظاهرة وجب الوقوف عندها تمثلت في عدم ترقية هذه التصورات الفكرية و النظرية إلى ممارسات نظامية تنظيمية، فعلى عكس أقرانهم من الاستقلاليين ، فإن الإصلاحيين الدينيين الجزائريين لا نجد لهم مبادرة قاموا بها لتحويل هذه المنطلقات النظرية إلى هيئات نضالية ذات فانون أساسي ،أو استراتيجية عمل وفق إجراءات عملية، و لم نسجل لهم تحويل ذلك الكم الهائل من أدبياته إلى لوائح و مواثيق سياسية و غيرها من آليات الممارسة السياسية بمفهومها المعاصر، و بقيت جل مبادراتهم في شكل ممارسات ،وردود أفعال وجدانية للتعبير عن ذلك التواصل المعنوي بين المغاربة دون أن يكون لذلك انعكاسات ميدانية تنظيمية. و في حقيقة الأمر فإن ذلك مرده لجملة من المعطيات المرتبطة تارة بالإطار البشري ، و تارة أخرى بمنطلقات هذا المشروع الإصلاحي الديني بحد ذاته ، فقد كان لطبيعة تكوين قادة و زعماء الاتجاه الإصلاحي أثر واضح في هذه المسألة ، فإنهم و بالرغم من رحلاتهم المتكررة نحو المشرق العربي بصورة خاصة، حيث عايشوا بعض القوالب التنظيمية التي كانت الحركة الإصلاحية هناك تعمل من خلالها (مثل التنظيمات السرية)،إلا أنهم لم يقوموا بنمذجتها في الجزائر، و حتى الظروف العامة التي نشأ فيها هذا الاتجاه في الجزائر كان لها أثرها البارز، فالواقع الجزائري كان أقرب إلى العدمية منه إلى الوجود نتيجة قرن من الممارسة الاستعمارية، فقد كانت أولويات عبد الحميد ابن باديس و البشير الإبراهيمي و الطيب العقبي و العربي التبسي و غيرهم من زعماء الإصلاح الديني تتمثل في بعث هذه الأمة من جديد و إخراجها من ذلك التيه الذي كانت تتخبط

فيه، نتيجة الفعل الاستعماري، و كنتيجة لهذه القراءة، فإن التيار الإصلاحي الديني ،و خوفا من قمعه و منعه من العمل من طرف السلطات الاستعمارية ، تفادى تشكيل تلك القوالب السياسية سواء على المستوى المحلي أو المغاربي، تفاديا لحرمانه من تحقيق مشروعه الحضاري، فحتى القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تفادى ذكر كل ما يشير إلى أية ممارسة سياسية، و لم تعتبر الجمعية نفسها حزبا حفاظا على وجودها ،و تفاديا لأي صدام مع الإدارة الاستعمارية في غير ما كانت تعتبره جوهر الإصلاح، ففي منظورها شمولية المشروع الإصلاحي فرض عليها تصنيف النهضة الشاملة للأمة على رأس أولوياتها.

إلا أنه و من جهة الأخرى فإن مسألة التنظيم عامة، و ما يترتب عنه من ممارسات سياسية بصورة خاصة، لم تكن واردة في أبجديات الحركة الإصلاحية الدينية ، باعتبارها مرتبطة بطبيعة المضمون الفكري للحركة الإصلاحية الدينية ككل، فقد ادى الجمود الفكري الذي عرفه العالم الإسلامي ، و أدى توقف الاجتهاد في الكثير من القضايا ،و السياسية على وجه الخصوص، إلى عدم مسايرته للكثير من التطورات التنظيمية التي شهدها العالم حينها، و لذلك لم يتمكن هذا الاتجاه من تحويل تلك المضامين الإصلاحية إلى صيغ إجرائية ميدانية سواء على المستوى المحلي أو المغاربي، و بقي مشروعه النهضوي وجدانيا أكثر منه عمليا، و برز في ما كتبه زعمائه من مقالات صحفية، و بيانات تأييد لقضايا ، و استنكار لقضايا أخرى، و تكرارا و ترديدا و تذكيرا بأن المنطقة المغاربية موحدة جغرافيا، و متناغمة بشريا، و متداخلة حضاريا و لا يمكن للسيرورة التاريخية إلا أن تعود لمجراها الأصلي و الأصيل.

5. الهوامش:

[1] مُحَّد البشير الإبراهيمي، كلمة في الاحتفالات، **الشهاب**، مج,14، ربيع الثاني/ جمادى الأول،1357هـ / جوان/جويلية 1938 م، ج4، ص 170.

[2] مُحَّد صالح الهرماسي ، **مقاربة في اشكالية الهوية**، المغرب العربي المعاصر، دار الفكر، دمشق، 2001م، ص 40 – 41.

[3] نفسه.

[4] عبد الحميد إبن باديس، **وحدة الشمال الأفريقي**، الشهاب، مج 13 ،05 جمادى الأول 1356هـ/ 10 جويلية 1937 .

[5] قرين مولود ، **البعد المغاربي في اهتمامات ونضال النخب الجزائرية في مطلع القرن العشرين**، النخبة المعربة الإسلامية نموذجاً" مجلة " دراسات "المجلد 14 ، العدد 01 ، الجزائر 2023 ، ص 150.

[6] المرجع نفسه ، ص 165.

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 220– 248

[7] المرجع نفسه ، ص 166.

[8] المرجع نفسه ، ص 166.

[9] حميدي أبو بكر الصديق ، قضايا المغرب العربي في اهتمامات النخبة الإصلاحية ،أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، المدرسة العليا للأساتذة ، الجزائر ، 2011، ص 252

[10] محمود علالي ،دراسة لكتابات الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر 02 ، 2014–2015، ص 71.

[11] حفيف طبابي ، **الحزب الحر الدستوري التونسي، 1934 – 1938**، الدار التونسية للنشر ، تونس، 2011، ص 37- 38.

[12]الحاج الحسن بوعياد، **الحركة الوطنية و الظهير البربري**، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء ،1979 ، ص 10

[13] عثمان شبوب، **الشيخ البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه**، دار الأمة للنشر و التوزيع ، الجزائر، 2007، ص 274.

[14] حميدي أبو بكر الصديق ، مرجع سابق ، ص 180.

[15] المرجع نفسه، ص 184.

[16] مُحَّد برابح الشيخ ، **الحضور الجزائري في الحركة الوطنية المغربية** ، دراسة أثر بعض الشخصيات الجزائرية ، مجلة أنسنة للبحوث و الدراسات ، العدد 06 ، 2012 ، الجزائر ، ص ص 06 – 16.

[17] أحمد توفيق المدني ، **تحية و إلى الأمام**، جريدة العلم ، العدد 1556 ، ص 01.

[18] مجهول، **جريدة البصائر المكافحة تدخل سنتها الرابعة**، جريدة العلم، العدد 1353، السنة الخامسة، 30 ربيع الأول 1370 هـ، 19 جانفي 1951، ص 01.

[19] مُحَّد بلقاسم، **وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا 1910 – 1975**، 02ج، البصائر الجديدة للنشر و التوزيع الجزائر، 2013، ص ص 270،271.

[20] مُحَّد ناصر ، **أبو اليقظان وجهاد الكلمة**، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1980، ص 278.

[21] مومن العمري ، **شعار الوحدة ومضامينه في المغرب العربي أثناء فترة الكفاح الوطني**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ، 2011 ، ص 299.

[22] حميدي أبو بكر الصديق، **قضايا المغرب في اهتمامات الحركة الاصلاحية الجزائرية (1920-1954)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، 2010-2011، ص 65.

[23] ابن باديس، **لمن أعيش ؟**، الشهاب، م 12 ، ج 10 ، غرة شوال 1355 ، جانفي 1937، ص 1.

[24] عبد الحميد ابن باديس، **وحدة الشمال الإفريقي** ،أبناء المغرب العربي في المشرق العربي، مجلة الشهاب، ج5، م13، 1356 هـ 10جويلية 1937، ص ص 247 – 248

[25] نفسه.

[26] نفسه .

[27] المصدر نفسه، ص 260.

[28] إضرابات عمالية نظمتها الحركة النقابية التونسية على رأسها فرحات حشاد ، ففي جبل الأسود في 02 أوت 1947 قام العمال باعتصامات في مصنع الإسمنت الجليز و السكك الحديدية، حيث قام حشاد بخطاب ناري و على إثر تدخل القوات الفرنسية قتل عدد من العمال التونسيين ، و في 04 أوت 1947 نادى الاتحاد التونسي للشغل بإضراب عام ، و قد استجاب له أكثر من 100 الف تونسي ، و في 05 أوت وقعت اشتباكات عنيفة مع الجيش الفرنسي أدت إلى سقوط عدد كبير من العمال التونسيين. أنظر، آيت مدور محمود ، الحركة النقابية المغاربية بين 1945 و 1962 ، الجزائر وتونس نموذجا ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، جامعة الجزائر، 2008 ، ص 143.

[29] الإبراهيمي، **كوارث الاستعمار**، البصائر، العدد 05، السنة الأولى 20شوال 1366، (05 سبتمبر1947)، ص 42.

[30] نفسه.

[31] نفسه.

[32] نفسه.

[33] الإبراهيمي، **عروبة الشمال الافريقي**، البصائر، العدد 150، السنة الأولى 03 رجب 1370، (09 أفريل 1951)، ص 113.

[34] نفسه.

[35] نفسه.

[36] نفسه.

[37] نفسه.

[38] **آثار الإمام مُحَّد البشير الإبراهيمي**، جمع و تقديم الدكتور أحمد الطالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،1997، ج04، ص 104.

[39] المصدر نفسه.

[40] آثار الإمام مُحَّد البشير الابراهيمي، المصدر السابق، ج 04، ص ص 96 ، 98.

[41] الشيخ البشير الابراهيمي يتحدث عن الاتحاد، جريدة صوت الجزائر، العدد 07، 13 فبراير 1954، نقلا عن آثار الشيخ الابراهيمي، المصدر السابق، ج 04، ص ص 301، 302.

[42] نفسه.

[43] الفضيل الورتلاني ، **الجزائر الثائرة** ، ط 04، دار الهدى ، عين مليلة ،الجزائر ، 2007 ، ص 06.

[44] ابن عبد المومن إبراهيم، **الوحدة المغاربية والعربية الإسلامية في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1954)**، دار النشر الجامعي الجديد، تلمسان،2020، الجزائر، ص 210.

[45] الفضيل الورتلاني ، مصدر سابق، ص 145.

[46] المصدر نفسه ، ص 91.

[47] المصدر نفسه ، ص 92.

[48] المصدر نفسه ، ص 93.

[49] المصدر نفسه ، ص 56.

[50] ا المصدر نفسه ، ص 255.

[51] المصدر نفسه ، ص 256.

[52] المصدر نفسه ، ص 252.

[53] المصدر نفسه ، ص 264.

[54] نفسه .

[55] المصدر نفسه ، ص 265.

[56] المصدر نفسه ، ص 269.

[57] المصدر نفسه ، ص 273.

[58] المصدر نفسه ، ص 277.

[59] نفسه .

[60] المصدر نفسه ، ص 281.

[61] المصدر نفسه ، ص 264.

[62] الفضيل الورتلاني ، **المجاهدون يعودون من الآخرة**، جريدة الكتلة المصرية. 03 مارس 1946.

[63] أحمد توفيق المدني، **مذكرات حياة كفاح** ،ج 01، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط02، الجزائر، 1988، ص 43

[64] المصدر نفسه ، ص 18.

[65] المصدر نفسه ، ص356.

[66] أحمد توفيق المدني، **تقويم المنصور لعام 1342هـ** ،مطبعة العرب بتونس،1924، ص 02.

[67] المصدر نفسه ، ص 18.

[68] المصدر نفسه ، ص 145 و ما سيليها.

[69] المصدر نفسه ، ص 36.

[70] حميدي أبو بكر الصديق ، مرجع سابق ، ص 262.

[71]- أحمد توفيق المدني، مذكرات حياة كفاح ، مرجع سابق، ج1، ص 231.

[72] المصدر نفسه ، ص 22.

[73] حميدي أبو بكر الصديق ، مرجع سابق ، ص 262.

[74] المرجع نفسه ، ص 273.

[75] أحمد توفيق المدني، **مذكرات (حياة كفاح)**، ج 01 ، مصدر سابق، ص 334.

[76] ابن عبد المومن إبراهيم، المرجع السابق، ص 185.

[77] نفسه.

[78] ابن عبد المومن إبراهيم، المرجع السابق، ص 185.

[79]- احمد توفيق المدني، تحية وإلى الأمام، جريدة العلم، العدد1556، السنة السادسة، 10 ذي الحجة 1350 هـ، (13 سبتمبر1951)، ص01.

[80] عبد الرحمان شيبان، **مقدمة مجلة الشهاب** ، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ص 90.

[81]حميدي أبو بكر الصديق، ، المرجع السابق، ص 66.

[82] الشيخ فرحات ابن الدراجي أبو حامد الليشاني البسكري الجزائري. ولد في بلدة ليشانة بولاية بسكرة بالجزائر في عام 1909 م ، حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ اللغة والدين في بلدته، وتخرج الشاب فرحات في جامع الزيتونة في عام 1931 م بشهادة التطويع ، فعين معلما في مدرسة مدينة سيق خلفا للشيخ العربي التبسي، ثم انتقل إلى العاصمة، فعمل في مدرسة الشبيبة في مدينة الجزائر تحت إدارة مُحَمَّد العيد آل خليفة ، و بعد انضمامه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، انتخب في سنة 1937 م نائبا للكاتب العام، و نظرا لتحكمه في اللغة الفرنسية ارسلته الجمعية ممثل عنها إلى مرسيليا بفرنسا ، حيث ألقى العديد من الدروس و المحاضرات بنادي التهذيب بنفس المدينة ، عينه البشير الإبراهيمي مشرفا على جريدة البصائر في سلسلتها الثانية، حيث كان يحرر "بريد البصائر"، توفي بالبليدة في 13 مايو من سنة 1951 م إثر مرض عضال. أنظر/ مُحَمَّد الهادي الحسني ، **مفخرة الزاب** ، بوابة الشروق، الجزائر، 2018، ص ص 01-10

[83]-فرحات الدراجي، منطق الاستعمار، البصائر،العدد 19 ،السنة02 من السلسة الثانية، الاثنين 29 صفر 1367، (12-01 1948)، ص 153.

[84] نفسه .

[85] البصائر، عدد35، السنة الثانية، 01 رجب 1369، (10ماي1948)، ص 274.

[86] البصائر، عدد 115، السنة الثالثة، 22 جمادى الثانية 1369 ، (10أفريل1950)، ص 212.

[87] البصائر، عدد114، السنة الثالثة، 15 جمادى الثانية 1369 ، (03أفريل1950)، ص 199.

[88] نفسه .

[89] في الشمال الإفريقي، البصائر، عدد131،السنة الثالثة، 06 ذي الحجة 1369، (18سبتمبر1950م)، ص341.

[90] نفسه .

[91] نفسه .

[92] البصائر ، عدد148، السنة الربعة، 11جمادى الثانية 1370، (19 مارس 1951)، ص 92.

[93] البصائر ، عدد182، السنة الخامسة، 05جمادى الأولى 1371، (01 فيفري 1952)، الافتتاحية.

[94] نفسه .

[95] مُحَمَّد ناصر ، **الصحف العربية الجزائرية بين 1847 و 1954**، ط03، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ص 341 .

[96] مجلة افريقيا الشمالية، العدد 01، السنة الأولى، ماي 1948، ص 05.

[97] مجلة افريقيا الشمالية، العدد 02، السنة الأولى، يونيو 1948، ص 108.

[98] مُحَمَّد بلقاسم، مرجع سابق ،ص ص 445-450

[99] مُحَمَّد الصالح صديق ، **شخصيات فكرية و أدبية** ، هذه مواقفنا من ثورة التحرير الجزائرية، دار الأمة ،الجزائر ، 2002 ، ص، 124.

[100] مالك بن نبي ، **وجهة العالم الإسلامي** ، دار الفكر المعاصر، بيروت ، 1986 ، ص 181.

[101] نفسه .